

حفر في بنية اللاشعور في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" لإبراهيم سعدي مقاربة تحليلية نفسية

أ. عبد القادر ضيف الله. جامعة سعيدة/الجزائر

يقول فرويد "معرفا اللاشعور" كل نسق نفسي تدل مظاهره على وجوده، بينما لا نعلم عنه شيئا رغم أنه يحدث فينا... فهو كل نسق نقبل بأنه فاعل حاليا دون أن نعلم، وبنفس الوقت، أي شيء آخر عن أمره.⁽¹⁾

من هذا التعريف سوف نحاول أن نحفر في هذا النسق ونتبين مظاهره. من خلال ولوج النص كبنية أو نسق لغوي يشف منذ بدايته عن حقيقة مفادها أننا أمام نص سير ذاتي أو نص اعتراف حيث يقول الراوي في التوطئة مبينا سبب كتابة مذكراته "هكذا، إذن. قر عزمي على تأليف هذا الكتاب، لكن ليس سعيا وراء شهرة أو مكسب أو خلود. فلا خالدا إلا الله، بل بحثا عن راحة الضمير، إن شاء الله عز وجل. والحق أنه ما تصورتني في يوم من الأيام قد ارفع قلمي لتأليف كتاب سيكون بلا ريب الأول والأخير — أتحدث فيه عن نفسي..."⁽²⁾. إذن قرار الكتابة أو الاعتراف هو كما قرار إعادة حكي حلم عاشته الذات التي يؤرقها الكبت، وهو استيهام يترجمه هذا العمل التخيلي الذي هو في حقيقته إنجاز مشوه لرغبة مكبوتة — باعتبار أن كل رغبة لاواعية "تسعى إلى أن تتحقق باسترجاع العلامات المرتبطة بالتجارب الأولى للإشباع، حسب قوانين العملية الأولية"⁽³⁾.

وهذا ما سنكشفه في خطاب ضمير المتكلم كما يقول جيران جينات. عبر كل مسارب الرواية. بداية من عتباتها الأولى.

1- عتبات الندم، جراحات الكبت:

إذا كان الراوي الذي يمثله الدكتور منصور نعمان وهو بطل هذه السيرة قد ترك مخطوط مذكراته دون عنوان وحتى دون اكتمال مما جعل المتن يتقاسم حكيه ثلاثة رواة يمثلون صوت الكاتب الخارج حكائي بلغة "جيرار جينات"، والذي يبدأ حكيه بتقمص دور الناشر الذي قصده غيره لطبع له هذا الكتاب وقد وصله بواسطة من الشخص الذي أراد طبعه حيث يقول "عندما وصليني هذا المؤلف ترددت كثيرا في قبوله، فصاحبه مات قبل أكثر من عشر سنوات. أي في تلك الفترة الحالكة من تاريخ بلادنا، مرحلة التسعينات السيئة الذكر" (4)

إن هذا الضمير المتكلم الذي يمثل الراوي الخارج حكائي وهو الناشر والمؤلف في الوقت ذاته ينفي عن نفسه كونه صاحب الكتاب ويشير إلى أن صاحبه قد مات، وأنه قبله بتردد، ثم يضيف "وقد عرضت عليه أن نغير بعض التعابير التي قد يساء فهمها من وجهة نظر الدين خاصة، وحتى نحذف التوطئة . إلا أنه أفهمني بأنه لا يقبل حتى بحذف فاصلة، وأنه إما أن أنشره كما هو أو لا أنشره، وربما هذا التشديد منه يعني أنه لم يكن مصرا كثيرا على طبع المخطوط، وهذا أمر مفهوم. ذلك أنه لا المؤلف، أي الدكتور الحاج منصور، و لا زوجته. كانا ينويان نشره حسب ما يبدوا." (5) نشير هنا أن زوجة السارد الدكتور الحاج منصور التي ستستلم خيط السرد وهي ضاوية ، بعد موته هي الراوي الثالث لهذه الحكاية التي تنفلت كما الحلم من رقابة الشعور قادمة من ظلام اللاشعور عبر عتبات النص التي يختلف في تحديدها الراوي الأول الذي يمثله الناشر مع الرجل الذي أراد نشر هذا المخطوط وهو أحد شخصيات الرواية المسمى السيد الهاشمي سليمان الذي يمثل الذات المقموعة والمطاردة والشاهدة على الخراب، والتي عانى صاحبها الكثير قبل أن يُقدم على اتخاذ قرار عرض هذا المخطوط للطبع، وهو فنان تشكيلي أصم وأبكم ممّ صعب التواصل معه.

"والواقع أن هذا الكتاب هو كذلك قصة شباب هذا الفنان الغريب والمجهول" (6) يضيف الناشر وهو الراوي الأول كما أسلفنا الذكر مختتما ملابسات نشره لهذا المؤلف " هكذا إذن أنشر الكتاب ، كما ألفه الدكتور الحاج منصور نعمان متحملا مسؤولية التبعات التي قد تصدر من بعض الأطراف ، وربما من الجهات القضائية أيضا، إذن لاشيء حذف من الكتاب أو أضيف إليه ، باستثناء العنوان لأن المؤلف وصلني بدون ذلك. كما أوضحت والحقيقة أنه لم يكن من السهل إقناع السيد الهاشمي بالعنوان الذي اتفقنا عليه في الأخير، فقد أراد أن يكون كالتالي " حياة الدكتور الحاج منصور عمان "، لكن بعد أخذ ورد طويلين — تاه أثناءهما مترجمنا — وافق بمضض على العنوان الحالي أما الذي عرضته عليه في البداية " بكاء الشيطان". فكاد أن يتسبب في مالا يحمد عقباه، وقد سمح لي ذلك بأن استنتج مدى تقديره الرجل لصاحب المخطوط. " (7) . إذن نحن أمام مؤلف يمثل اعترافا قد يمس بعض الأطراف، وقد يوصل إلى الجهات القضائية لهذا يحق لنا كقراء أن نطرح السؤال التالي:

ما نوع هذا الاعتراف. وهل هو خطير لدرجة يمكن معه أن تكون له تبعات قد تصدر من بعض الأطراف وربما من جهات قضائية، أم هو محاولة لاستدراج القارئ إلى قراءة هذا المخطوط، أم هي محاولة تجارية تدخل مجال الإشهار مادامت صادرة على لسان الناشر ؟ .

نعتقد أن الإجابة عن هذه الأسئلة تبدأ من عتبة العنوان الذي يضعنا فيه الراوي أمام ثلاثة احتمالات لتأويل المعنى العام لهذا المؤلف، والتي يقدمها الراوي الأول أو الناشر بعد أن يقدم تبريراته نحوها. أولا: تبرؤه من إضافة أي شيء لهذا المخطوط. ثانيا: تقديمه تلك الاقتراحات التي تخص عنوان المخطوط الذي وصله، والتي نعتقد أنها العتبات الأولى لفهم بنية اللاشعور في الرواية. " لاشيء حذف من الكتاب أو أضيف إليه، باستثناء العنوان لأن المؤلف وصلني بدون ذلك " (8) .

الاقتراح الأول، أو العتبة الأولى: " حياة الدكتور الحاج منصور نعمان " تحيلنا هذه العتبة على أن المخطوط هو سيرة حياة مؤلفها، أي أنه يحمل حقائق واقعية لهذا الرجل المثقف، وبالتالي، فهي حقائق ليست عادية. لأن الناشر تردد في نشر المخطوط متحفظا عن بعض ما جاء فيه، لكن الرجل وهو هنا السيد الهاشمي رفض أن تحذف منه حتى ولو فاصلة. " أفهمني بأنه لا يقبل حتى بحذف فاصلة"(9)

كما أن الناشر رفض من جانبه أيضا أن يكون عنوان الكتاب هو " حياة الدكتور الحاج منصور نعمان " مقترحا عنوانا آخر هو " بكاء الشيطان " الذي كاد أن يتسبب في مالا يحمد عقباه.

لهذا يمكننا أن نقف قليلا عند العتبة الثانية وهي المقترح الثاني للعنوان " بكاء شيطان " والتي يتجلى فيها المعنى كما لو أنه يطل علينا من عمق الذات التي تورطت في خطايا لا تغتفر، لأن الشيطان كما تحيل دلالاته هو ذاك الرجيم الذي أخرجه الله من رحمته، وهو الوسواس الخناس الذي يوسوس لبني آدم ويدفعهم لاقتراف الخطايا، لكنه هنا من خلال لفظة البكاء التي سبقته والتي يضعها الناشر كلفظة مفارقة تساهم في تكثيف العتبة ليقدم هذه السيرة كما لو أنها كفارة عن كل تلك الخطايا التي تتصور أن الشيطان قد وقع فيها، وهي في الوقت ذاته تعبر عن لحظة ندم. وما دام البكاء كما نعرفه: هو سلوك إنساني يحدث للإنسان في لحظات ضعفه وندمه. لهذا يحق لنا أن نثير السؤال التالي: هل يبكي الشيطان؟. هنا المفارقة التي تعزز معنى الخطيئة، ومعنى الندم في أقصى صورته، كما تعزز عبر صوت الراوي الأول الذي قلنا أنه في الحقيقة هو يمثل صوت المؤلف، أي صوت الذات التي تشعر بانقهارها أمام واقع يبدو الخراب صفته الملازمة. والذي يسعى لإيهامنا بأنها تبحث عن خلاص أبدي ودائم. لهذا يحق لنا أن نطرح سؤالا آخر عن هذا الخيار الذي تقترحه علينا الذات بمعنى: -

هل ما تقدمه الذات لنا في هذه العتبة وهي ترسم لنا عقدة ذنبها كافٍ. وهل هذه العتبة كافية لتجعل من هذه السيرة حقيقية وواقعية مادامت تطرح بهذا الشكل العاري الذي يكشف عن ما اقترفته ذات البطل من ذنوب في حق الآخر؟. أم أن هناك شيئا خفيا تريد الذات تكميمه عبر دلالة هذه العتبة الصادمة والمفارقة؟.

نعتقد أن المفارقة المبالغ فيها في هذه العتبة تعبر عن انحراف أو إزاحة لميكانيزم دفاعي تقوم به الذات من أجل تمرير المكبوت الذي تختلط فيه انفعالات اللذة والمتعة التي فقدتها الذات في مسار تشكيلها الطفولي . بمعنى آخر أن ذات الراوي وهي تحاول أن توهنا بالندم هي في حقيقة الأمر تبحث عن تحقيق توازن نفسي واجتماعي في واقع تشعر بأنه معاد لها منذ الطفولة. وتريد في الوقت ذاته أن توثق دمارا مرت به البلاد لأن السيرة هنا لا تنبني على حكايا الماضي فقط بل نبجدها تسرد بالموازاة مع ما كان يقع في الجزائر في تلك العشرية السوداء . وهو زمن الحكيم . وهذا ما يحيل إليه ذاك الرفض القاطع من شخصية السيد الهاشمي الذي رغم أنه أحد شخصيات الرواية إلا أنه يحمل بعضا من سمات ذات المؤلف أو يحمل ما يمكن أن نقول عنه أنه الجانب الحسي الرهيف الذي يمثلته المثقف الفنان الذي فقد بوصلته في تلك العشرية السوداء أو سيئة الذكر كما يقول عنها السارد .

أما العتبة الأساسية أو العنوان الذي أُنْفَقَ عليه وصدر به الكتاب " بوح الرجل القادم من الظلام" فهو يشي منذ الكلمة الأولى أو العلامة الأولى بأننا أمام سيرة مثخنة بالكبت من جهة، ومن جهة أخرى تمثل شهادة الذات واعترافها بما سكنها أو ما عذبها في حياتها التي لم تكن سوى سرمد من ظلام. رغم أن هذا الرجل وهو الراوي الأساسي لسيرته التي شاركته زوجته الضاوية سردها ، والتي

لم يكن اسمها بدلالاته "ضاوية" سوى بحث آخر عن خيط ضوء وسط حياة مظلمة بالخطايا و بقتامة الصور المربعة في فضاء الموت.

إذا نحن أمام عتبة مهمة يسربها اللاشعور، أو هي اللاشعور بحد ذاته لأننا أمام فضاء ذهني لا نعلم عنه شيئاً. على الرغم من أن العتبة بتكثيفها وإزاحتها اللغوية تعبر عن قناتته بصور الموت وبصور أخرى نجهلها رغم ما توحى به كلمة الظلام التي هي بنية مكانية ذهنية تحيل على فضاء جحيمي سجت فيه الذات في زمن ماض، ولأن العتبة أيضاً تحيلنا على كينونة رجل مجهول ننتظر قدومه من الظلام ليكشف لنا هويته ويجعلنا نترقب ما جاء ليخبر عنه. باعتبار الظلام فضاء للخوف في ذاكرتنا الطفولية. وهي من جهة أخرى بوح عما قاسته الذات من آلام الندم جراء تورطها في الخطايا والذنوب. لهذا يحق لنا أن نطرح سؤالنا التالي :

- هل نحن أمام رجل يعترف بذنوبه في فضاء قائم، أم نحن أمام مأساة تتجاوز هذا الإنسان الفرد أو هذه الذات المقنعة إلى مأساة فضاء كامل قد يكون وطناً والذي تعبر عنه لفظة الظلام التي يستتر قبلها مكان سكنه الخوف؟.

للإجابة عن هذا السؤال الذي نعتقد أنه سؤال القراءة في نهاية المطاف علينا أن نحفر في جسد النص. في الكلمات التي تمثل أفنعة في بنية اللاشعور الذي يطلق عليه جاك لاكان "ذاك الفصل من تاريخي الذي يتميز بالبياض أو الاستغراق في الزيف، إنه الفصل الخاضع لرقابة..."⁽¹⁰⁾ من جهة، ومن جهة أخرى ستفصح أي الكلمات ذاك الزيف أو الفصل الخاضع لرقابة.

2- سقوط الأقنعة وتعري اللاشعور:

بعد العتبات يبدأ النص باعتراف الراوي داخل حكاياتي كما يصفه "جزار جينات" وهو هنا الدكتور الحاج منصور نعمان الذي يبدأ سرد تاريخ حياته بدءاً من الطفولة أو بالأحرى من اللحظة التي ظهرت عليه تغيرات فسيولوجية، أي

لحظة بداية المراهقة حيث يقول " لا أجد شيئا كثيرا أقوله عن نفسي قبل بلوغي الثانية عشرة. فإلى ذلك السن لم يميزني الله سبحانه وتعالى عن غيري من الأطفال إلا في أنني كنت بلا أخ وبلا أخت" (11)

نعتقد أن المرحلة المهمة التي كانت ستضيء لنا كل ما سيأتي فيما بعد من مآس حدثت مع البطل هي مرحلة الطفولة التي حاول البطل إخفاءها من خلال إقراره بأنه عاش طفولة عادية كما كل أقرانه ولم يميزه الله سبحانه بشيء سوى بأنه بلا أخ ولا أخت. ثم يضيف " الابن الوحيد لوالدي. رحمهم الله رغم أن هذا الأمر جعلني محل حنان ورعاية بالغتين منهما. فإنه لم يعوضني قط. إحساسي بالحرمان من وجود شقيقة. وخصوصا من وجود شقيق..." (12) هنا يظهر القناع الذي يحاول الراوي أن يوجهنا نحوه وهو هذا الإحساس بالحرمان الذي يشعر به جراء وحدانيته التي لا نعتقد أنها وحدها المشجب الذي يعلق عليه البطل أسباب الشرخ الذي مس انفعالاته وجعله يعيش حرمانا رغم تلك العاطفة الزائدة التي كان يتلقاها من والديه. إذن لابد لنا أن نحاول إمطة اللثام عن هذا التقمع الذي تمارسه الكلمات أو حتى اللغة التي يتحدث بها الراوي، لأن الكلمات هي النقطة العقدية للكثير من الأفكار باعتبار أن الالتباس قدّرها كما يقول "فرويد". أو كما يقول لاكان " إن الكلمة ليست علامة ولكنها عقدة دالة". (13) هذا من جهة ومن جهة أخرى علينا أيضا أن نترصد ما سكت عنه الراوي في سرد سيرة طفولته، هذا الصمت أو تلك الكلمات هي ما يسقط قناع اللغة ليكشف لنا عن ذاك الصراع الخفي الذي كان يحدث بين والديه. وبينه وبين أبيه حتى أننا نجد في الصفحات التالية من الرواية وخاصة تلك العلاقات غير السوية التي كان يربطها مع النساء، بداية من زوجة أب صديقه التي يسميها "خالتي وردية" ثم علاقته بمسعودة المطلقة ثم معلمته السيدة كلير ردمان. و هي علاقات جنسية مع نساء يكبرنه سنا ثمّا يجعلنا أمام علاقات مقنعة تخفي بحثا خفيا للبطل عن صورة

الأم. كما يضعنا أمام محاولات يجريها البطل لاشعوريا لإعادة صياغة علاقة التماهي الأوديسي بينه وبين أبيه عبر تعالي الذات عن العدوانية يقول "لاكان" لهذا فإن " التماهي الأوديسي هو ذاك التماهي الذي تتعالى الذات عبره عن العدوانية المكونة لتفرديتها الذاتية الأولى⁽¹⁴⁾ التي لم يستطع البطل في طفولته أن يتجاوزها بصورة سوية مما جعله يعيش آلام الذنب الذي لم يكن في الحقيقة سوى ذنب تلك العلاقة غير السوية التي كانت تربطه بوالديه منذ الطفولة والتي لاحقته طيلة سرده لسيرته التي حاولت زوجته ضاوية أن تكمل خيط سردها الذي توقف عند العبارة التالية "منصور أخي أنظر إلى حياتك الماضية ، تأمل فيها جيدا ابحث عن ذنوبك كلها ، ولا .". تقول ضاوية " نعم زوجي ترك الجملة هكذا ناقصة. ولا شيء خطر بباله أظن أن أول شيء خطر في ذهنه في تلك اللحظات هو أن يخفي أوراقه . " (15)

بعد اغتيال الحاج منصور من طرف الجماعات المسلحة التي كان على رأسها صهره أبو أسامة حملت زوجته ضاوية على عاتقها خيط السرد وهي التي أسميناها سلفا -الراوي الثالث-، تباشر ضاوية الحكى لتفتح مغاليق الظلمة التي كان الحاج منصور يحاول إحكامها وهو يخرج من عمق نرجسيته جراحات السنوات التي شكلت ذاك الذنب وشكلته، ولتضع سؤال النهاية لهذه السيرة التي تتقاطع مع سيرة البلاد وما حدث فيها منذ ثورة التحرير إلى سنوات المحنة مما يجعلنا أمام تماهي الذنب الفردي في الذنب الجماعي الذي ترتب عن سلوكيات أولئك الذين أوصلوا البلاد إلى الانهيار، وهذا ما تبرره ضاوية حينما تكرر أسئلتها حول النهاية المأساوية التي حدثت لزوجها " هل كان سيحدث الذي جرى لو لم يفتنا في ذلك اليوم أن نغلق كالعادة الباب الكبير بالقفل من الداخل؟ غرنا كون الوقت آنذاك نهارا وليس ليلا؟ الواحدة بالتدقيق؟ هل...؟ هل...؟ هل...؟ أسئلة تعذبنا، تضطهدنا وتطاردنا بلا هوادة، من غير أمل في الإجابة عنها. لكن حتى لو

أمكن الإجابة عنها، أي شيء سيتغير، عدا ربما المزيد من الألم والندم⁽¹⁶⁾ هنا تلبس الحالة الفردية بالحالة الجماعية أو بالشعور الجماعي الذي يحاول الراوي الخارج حكائي وهو المؤلف إبراهيم سعدي التعبير عنه من خلال دمج معاناة الحاج منصور بمعاناة وطن بكامله، وطن فقد توازنه وظل طريقه منذ فجر الاستقلال حينما تطاحن على سلطته الأبناء فحولهم هذا التطاحن إلى حيوانات مفترسة تخوض حربا خاسرة. تقول ضاوية " فحول أخي بصره الجهنمي نحوه " جئت لأنفذ فيكم أمر الله⁽¹⁷⁾.

باسم الدين أو باسم الحفاظ على هذا الوطن كلاهما مدان عبر هذا الشعور بالندم الذي تسربه حكاية الحاج منصور سواء على لسانه أو على لسان زوجته التي راحت تسترجع تاريخ زوجها عبر تلك الشخصيات " لم تدرك أختي أنني كثيرا ما كنت في معية أشخاص لن يخطر وجودهم في بالها قط في يوم من الأيام، مع والدي منصور، مع زكية، مع نسرین شیراز، مدام كلير ردمان ومسعودة المطلقة واليهودية سليين وصالح الغمري وغيرهم. نعم . كان يحدث لي أن أعود إليهم لأسترجع حياة الحاج منصور الغريبة والمؤلم⁽¹⁸⁾.

وكأنها تسترجع تاريخنا تشكل منذ بداياته الأولى تشكلا غير سوي عبر تشابك مصالح الفاعلين فيه، فكل شخصية من الشخصيات التي عرفها الحاج نجدها تتقاطع مع ذاك الشعور الوهمي بالانتصار وبالعدوانية على صورة الأب الذي تمكن في النهاية من قتل موضوع الرغبة التي طالما تطلع لها البطل عبر تطلعاته الجنسية في تلك العلاقات مع النساء اللواتي يكبرنه خاصة، ومع الأخريات اللواتي مثلن مقابلة الأنا بالآخر والذي تمثله علاقة مدام كلير ردمان وعلاقة سليين اليهودية يقول جان لا كان " تتجلى العدوانية ضمن تجربة ذاتية، وحدها ذات (مفردة) تستطيع فهم معنى وتأيله. وبالعكس (...). فالعدوانية سواء تعلق الأمر بسلوك أم بهوام، بل حتى بحلم، إنما هي دائما ظاهرة معنوية في متناول

ذات مفردة." (19) والتي سوف نحاول الكشف عنها في علاقة الأنا بالآخر وإخفاء الهزيمة التي تتسرب من ظلمة اللاشعور .

3- الأنا والآخر وإخفاء الهزيمة:

منذ بداية السطور الأولى للرواية تتكشف تلك المحاولة في إخفاء علاقة الأنا بالآخر في تشكيلاته الأولى، وهذا ما يبينه غياب فترة الطفولة التي تعتمد الراوي الداخل حكائي طمسها عبر التقليل من شأنها حيناً أو اعتبارها فترة عادية مرت عليه كما مرت على كل طفل جزائري في تلك الفترة. يقول " لا أجد شيئاً كثيراً أقوله عن نفسي قبل بلوغ الثانية عشرة .. " (20)

إذا كان علماء النفس وعلى رأسهم "فرويد" يقرون بأن أهم مرحلة في حياة الإنسان هي مرحلة الطفولة التي تمتد من صفر إلى اثني عشر سنة والتي يتشكل فيها الأنا في علاقته مع الآخر والعالم حيث تصبح الذات نشطة كما يقول لاكان "بواسطة المصطلح السائد ذي المعاني المتعددة (l'autre) الآخر... الذي يقدم في تجلياته كلها نقصاً أو فجوة للعمليات التي تقوم بها الذات ، ويفقد الذات قدرتها على التفرد أو الاستبطان أو الإدراك أو الاكتمال أو التبادلية ؛ ويضمن عدم تدمير الرغبة بالحفاظ على أهدافها حلقة تحليفاً أبدياً . " (21)

إذن الآخر هو مرآة الذات ومُشكّل مرآويتها التي تمنحها ذاك الشعور بالاختلاف الذي شعر به البطل عند بلوغه السن الثانية عشر ،وهي لحظة الاكتشاف "بأن آخر المرأة ليس سوى صورة لا كائناً واقعياً.لن يبحث عن الامساك بالصورة ولن يبحث عن الآخر خلف المرأة، ذلك أنه أصبح الآن يعلم أنه لا يوجد ثمة أي شيء" (22) وبالتالي ستتغير علاقة الذات التي كانت تستبق نضوجها من خلال امساكها بالشكل الكلي لجسدها الخاص في حالة صورة خارجية

ولأن الآخر متعدد كما يقول "لاكان" كما أنه يقدم في تجلياته نقصا أو فجوة للعمليات التي تقوم بها الذات لهذا يحق لنا أن نتساءل عن ماهية هذا الآخر وكيفية تشكله في تلك المرحلة المهمة التي طمسها الراوي من حياته ، يقول فرويد وحتى لاكان أن الآخر الأول primal هو الأب في المثلث الأوديبي⁽²³⁾.

طيلة مسار الحكيم لا يخبرنا الراوي عن علاقته بوالديه إلا في تلك البداية عندما أشار إلى أنه وحيدهم مما جعله محل رعاية واهتمام كبيرين حتى أنهم كانوا دائمي الشجار مع الجيران "— لأنه بلا إخوة. تحسبون أنه يحق لكم أن تفعلوا به ماتشاءون يا ظالمين ! سمعت المرحوم يعيط أكثر من مرة "⁽²⁴⁾ ييدي الراوي من خلال هذه العبارة احتراما لوالده الذي كان يشعر بآلامه ويقدر عطفه الزائد عليه بسبب إنجابه طفلا واحدا في زمن كان الموت فيه شائعا بين الأطفال.

"وأظن — والله أعلم — أنه بدوره ظل يتألم من أن الله العلي القدير لم يرزقه إلا بي. أعني بطفل واحد. لاسيما وأن الموت في ذلك الزمن كان شائعا عند الأطفال. مما جعل الآباء والأمهات يكثرون من البنين والبنات"⁽²⁵⁾ يقدم الراوي علاقته بوالديه بنوع من الإقناع من خلال سلوكيات عاطفية زائدة دون أن يفصل فيما ينجر عما قد يسببه وجود طفل واحد في عائلة جزائرية كانت تعيش على الهامش، وبالتالي مع تقاليد لا تقبل عدم الإنجاب؛ أي هل تقبل الأب عدم إنجاب زوجته أكثر من طفل بسهولة دون أن تخلق بينهما مشاكل علائقية، أم أن كل تلك العاطفة الزائدة هي مجرد تعويض عن هذا النقص الذي يشترك فيه الأبوان؟ قد تدفعنا الإجابة عن هذا السؤال إلى تفسير ذاك المآل التراجيدي الذي وصلت إليه أسرة الراوي في نهاية المطاف. حينما وصل البطل خبر قتل أبيه لأمه. وكذلك تلك الخطايا التي ارتكبتها في حق الذين يحبونه.

تنكشف علاقة التوتر ومنافسة الأب الرمزي حينما تنتقل العائلة لتسكن في فيلا روز التي تركتها السيدة "كلير ردمان" للبطل بعد مغادرتها الجزائر مع

حصول الاستقلال. حينها تبدأ الأم في تغيير سلوكاتها من خلال محاولة التكلم باللغة الفرنسية وارتدائها للملابس معلمته السيدة كلير ردمان التي كانت صورة علاقته الجنسية معها لا تكاد تفارق ذهنه مما جعله يعيد لاشعوريا تلك الرغبة المكبوتة التي طالما كان الأب عائقا أمام تحقيقها وهي رغبة الطفل في استعادة التعلق بصورة الأم. يتضايق البطل من سلوكات أمه ويدينها في أكثر من موقف دون أن يشير إلى الآخر الأول — إلى متى ستظلين ترتدين ملابس معلمتي. أماء؟ سألتها وأنا منتصب عند مدخل القاعة " (26).

وكذلك حينما وقعت لهم واقعة الهروب من فيلا روز بعدما طارده إخوة تلك الفتاة زكية التي أحبها بنقاء وحملت منه مما جعلها تقدم على الانتحار. لا يبدي البطل أي صورة لعلاقة والده مع والدته حتى وهي ترتدي تلك الملابس الأوروبية التي تخص معلمته السيدة كلير ردمان. كما أنه لا يمنح أي عبارة تدلنا على شعوره بالضيق اتجاه والده، لكننا رغم ذلك نستنتج من بياضات الصمت هذه التوترات التي كانت مكبوتة على المستوى النصي والتي يؤثر عليها تصريح الأب لابنه حينما قرأ حادثة اغتيال محافظ الشرطة لزوجته التي وجدها تخونه. حينها قال "ذات يوم قد أقتل أمك أيضا. " (27)

وبالفعل كانت النهاية هي قتل الأب زوجته وتقدم نفسه للشرطة. البطل هنا لا يدين أباه رغم أنه قتل أمه، ولا يدين أمه، مما يجعلنا نستنتج أن الذات تحاول نقل تلك الإدانة إلى نفسها كاشفة دون أن تشعر عن تلك العلاقات المحرمة التي كانت تقع فيها. والتي تترجم تلك الرغبة المقموعة من الأب مما يجعلها في وضعية انهزامية لا تستطيع أمامها أن تفعل شيئا. والتي ستولد لها نوع من التبعية للآخر الذي نراه يظهر جليا عبر علاقاته حينما يغادر تراب وطنه أو حتى قبل ذلك حينما ربط علاقة جنسية مع معلمته السيدة كلير ردمان التي تمثل الجانب الأنثوي في الآخر، وهو نوع من الالتفاف على الرغبة الأولى لتحقيق

الوجود و الاختلاف. كما نجد ذلك جليا أيضا في علاقته مع اليهودية سليين التي يبرز عبرها ذاك الصراع التاريخي بين اليهود والعرب.

ومادامت نهايات تلك العلاقات يرسمها الراوي بتلك الطرق المأساوية التي ينتهي بها الآخر إلى الموت فإنه يشير لاشعوريا إلى مسألة في غاية الأهمية وهي علاقة الأنا بالآخر التي هي علاقة جنسية تتسم بالصدام أكثر مم تتسم بالتفاهم، لأن الذات تعيش أزمة تشكل وأزمة هوية وأزمة مشروعها الحضاري، وهذا ما تطرحه الحكاية الموازية لعشرية الموت والتي يكون البطل أحد ضحاياها، ورواها في الوقت ذاته .

الهوامش:

1- (فكتور سميرنوف: التحليل النفسي للولد ، ترجمة د فؤاد شاهين، المؤسسة الجامعية

للدراستات والنشر والتوزيع بيروت ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص: 65

2- رواية: بوح الرجل القادم من الظلام ل. "إبراهيم سعدي"، منشورات الاختلاف، ط1،

2002، ص: 10

3- الرواية، ص: 5

4- جان بيلمان نويل: التحليل النفسي والأدب ، تر: حسن المودن ص: 34

5- الرواية، ص: 5

6- الرواية، ص: 7

7- الرواية، ص: 7

8- الرواية، ص: 7

9- الرواية، ص: 7

10- جاك لاكان: وإغواء التحليل النفسي، تر: عبد المقصود ع الكريم ، المجلس الأعلى

للثقافة، مصر 1999، ص: 202

11- الرواية، ص: 11

- 12- الرواية، ص: 11
- 13- جاك لاكان: وإغواء التحليل النفسي، تر: ع المقصود وع الكريم، المجلس الأعلى للثقافة مصر 1999، ص: 188
- 14- جاك لاكان: اللغة الخيالي والرمزي، سلسلة بيت الحكمة، إشراف: مصطفى المنساوي، منشورات الاختلاف، ص: 48
- 15- الرواية، ص: 324
- 16- الرواية، ص: 325
- 17- الرواية، ص: 326
- 18- الرواية، ص: 328
- 19- جاك لاكان: اللغة الخيالي والرمزي، سلسلة بيت الحكمة، إشراف مصطفى المنساوي، منشورات الاختلاف، ص: 47
- 20- الرواية، ص: 11
- 21- جاك لاكان: وإغواء التحليل النفسي، تر: ع المقصود وع الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 1999، ص: 98
- 22- جاك لاكان: اللغة الخيالي والرمزي، سلسلة بيت الحكمة، إشراف مصطفى المنساوي، منشورات الاختلاف، ص: 43
- 23- جاك لاكان: وإغواء التحليل النفسي، تر: ع المقصود وع الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 1999، ص: 98
- 24- الرواية، ص: 11
- 25- الرواية، ص: 12
- 26- الرواية، ص: 85
- 27- الرواية، ص: 105